حدّ التأويل
في اصطلاح القرآن والحديث(*)

دة. فريدة زمرد(**)

القصدُ هاهنا تحديدُ مفهوم التأويل في القرآن والحديث، بمعنى وضع تعريف له انطلاقا من دلالات المصطلح في كل النصوص التي ورد فيها في المجالين معا، ولبلوغ هذا القصد لزم قطع منازل ثلاث اقتضاها اختيار الطريقة الاستقرائية في بناء التعريف[1]، فأولى هذه المنازل: الاستقراء التام لكل موارد اللفظ في القرآن والحديث إحصاء ووصفا، والثانية: تحليل هذه الموارد في جوانبها الشكلية: من حيث أحجامها وصيغها، والثالثة: تحليل هذه الموارد في جوانبها الدلالية، من جهة المعاني الجزئية المتضَمَّنة في كل مورد، وهي التي سيتم استنباط التعريف المعتبر لهذا المصطلح في القرآن والحديث منها .

1. الدرس الوصفي لموارد لفظ التأويل في القرآن والحديث

يُقصد بالدرس الوصفي لموارد اللفظ: إحصاء مواطن ورود المصطلح في القرآن والحديث (أي الآيات والأحاديث المشتملة على المصطلح)، ووصف أشكال هذه الموارد، (أي الصيغ الاشتقاقية التي وردت بها)، وقد قُسم النظر في هذا الدرس إلى جانبين : الأول متعلق بالقرآن الكريم والثاني متعلق بالحديث الصحيح.

1.1. في القرآن الكريم

وردت مادة (أوَل) في القرآن الكريم من خلال اثني عشر اشتقاقا تُكَوِّنُ في مجموعها 420 موضعا، نبينها في الجدول التالي :

(*) – هذا المقال جزء من أطروحة دكتوراه في الدراسات الإسلامية في موضوع (مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف).

(**) – أستاذة باحثة بمعهد الدراسات المصطلحية، كلية الآداب، ظهر المهراز – فاس.

1 – هناك أيضا الطريقة الاستنباطية التي تقضي بأن يُبْدأ بوضع التعريف أولا، ثم تفصيل القول في باقي المنازل ثانيا، ولا مشاحة في الطريقة إذا تحقق القصد.

الاشتقاق	حجم وروده	الاشتقاق	حجم وروده	الاشتقاق	حجم وروده
التأويل	17	الأولى	20	أولات	2
الموئل	1	الآل	25	أولاء	2
الأوّل	23	أولو	17	هؤلاء	46
الأوّلون	38	أولي	26	أولئك	202

من بين كل هذه الاشتقاقات يقتصر الدرس والتحليل على الاشتقاقات المنتمية إلى نفس المجال المفهومي للفظ التأويل وهي: الموئل والأوّل (بصيغه) والآل، بالإضافة إلى المصطلح الأم: التأويل. وكما هو مبين في الجدول الإحصائي، يحتل "التأويل " من بين تلك الموارد: سبعة عشر موضعا موزعا على سبع سور، خمس منها مكية وهي: الأعراف والإسراء ويونس ويوسف والكهف، واثنتان مدنيتان هما: آل عمران والنساء[2].

- ففي الأعراف[3]: ورد اللفظ بصيغة المصدر المضاف إلى الضمير ــ مرتين ــ وذلك في الآية 52 : (هلْ ينظرونَ إلاّ تاويله يومَ يأتي تاويله يقولُ الذينَ نسوهُ منْ قبلُ قدْ جاءتْ رسلُ ربنا بالحقّ فهلْ لنَا منْ شفعاءَ ...).

- وفي الإسراء[4]: ورد اللفظ بصيغة المصدر النكرة، مرة واحدة، وذلك في الآية 35 (... وأَوْفُوا بالكَيْل إذا كِلْتُم وزنُوا بالقُسْطَاس المُسْتَقِيم ذَلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنَ تاويلا...).

- وفي يونس[5]: ورد اللفظ بصيغة المصدر المتصل بالضمير مرة واحدة، وذلك في الآية 39 : (... بَلْ كذّبُوا بما لم يُحيطُوا بعلْمه ولمّا يَاتهم تأويله..).

- أما في سورة يوسف[6]: فقد ورد اللفظ ثمان مرات بصيغ مختلفة:

2 - روعي في هذا الترتيب : ترتيب النزول وهو مستفاد مما أورده السيوطي في الإتقان :1 / 25.
3 ــ وهي مكية وآياتها 206 حسب رواية ورش عن نافع .
4 ــ وهي مكية وعدد آياتها 110.
5 ــ وهي مكية وآياتها 109 .

❖ صيغة المصدر مضافا إلى لفظ الأحاديث وذلك في الآيات :

(وكذلك يَجْتَبيكَ رَبُّكَ ويعلمك منْ تاويل الأحاديث...). آية:6.

(وكَذَلكَ مكّنَّا ليُوسفَ في الارْض ولنعلمهُ من تاويل الأحاديث). آية:21.

(رَبِّ قدْ آتيتني منَ المُلْك وعلّمْتَني منْ تاويل الاحاديث، فاطرَ السماوات والارْض أنْتَ وليي في الدنيا والآخرَة توفني مسلما وألحقني بالصّالحين). آية:101.

❖ صيغة المصدر المضاف إلى لفظ الأحلام: وذلك في الآية 44 وهي قوله ﷻ: (قالوا أضْغَاث أحلام وما نحنَ بتاويل الاحلام بعالمينَ ...).

❖ صيغة المصدر المُضاف إلى لفظ " رُؤْياي" وذلك في الآية:100 وهي قوله ﷻ: (قالَ يا أبَت هَذا تَاويلُ رُؤْيايَ من قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبّي حَقّا...).

❖ صيغة المصدر المضاف إلى الضمير : وذلك في الآيات :

(...نبئنا بتاويله إنا نراك منَ المحسنين).الآية: 36 .

(قالَ لا ياتيكما طعام ترْزَقانه إلا نبأتكما بتاويله قبل أن ياتيكما) الآية:37.

(وقال الذي نجا منهما وادّكَرَ بَعْدَ أمة أنا أنبئكم بتاويله فأرسلون.) الآية:4.

- وفي الكهف[7]: ورد اللفظ بصيغة المصدر -مرتين- مضافا إلى اسم الموصول وصلته موصولة وذلك في الآية 77 وهي قوله ﷻ: (قال هذا فراقُ بيني وبينك سأنبئكَ بتاويل ما لم تَسْتَطِعْ علَيه صَبْرا) والآية 81 : (وما فَعَلْتُهُ عنَ امري ذَلكَ تاويلُ ما لم تسْطع عَلَيْه صَبْرا).

– أما في آل عمران[8]: فقد ورد " التأويل" مرتين بصيغة المصدر المضاف إلى الضمير وذلك في الآية السابعة: وهي قوله ﷻ: (هُوَ اللذي أنزَلَ عَلَيْكَ الكتَابَ منْه

6 ــ وهي مكية وعدد آياتها 111 .

7 ــ وهي مكية وآياتها : 105 .

8 وهي مدنية وآياتها : 200 .

آياتٌ محكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب، وأخر مَتَشابهات، فأما الذيـــن في قلوبهـــم زَيـــغٌ فيتبعون ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تاويله وما يعلمُ تاويلهُ إلا الله ...)الآية.

– وفي النساء[9]: ورد اللفظ مرة واحدة مصدرا نكرة وذلـــك في الآيـــة 58 وهي قوله: (يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا الله وأَطيعوا الرّسولَ وأولي الامرِ منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوهُ إلى الله والرسول إن كنتُم تومنونَ بالله واليَوْم الآخـــر، ذلك خَيْر وأحْسَنُ تاويلا...).

حاصل هذه الموارد من حيث كمها وصيغها والمجال الذي تنتمي إليه يجملـــه الجدول التالي :

موضع الورود		حجم الورود	شكل الورود
المجال	السورة والآية		
المكي	الأعراف 53	2	(تأويله) / مصدر.
	الإسراء 35	1	(تأويله) / مصدر (مميز)
	يونس 39	1	(تأويله) / مصدر.
	يوسف 6-21-101	3	(تأويل الأحاديث) / مصدر.
	يوسف 44	1	(تأويل الأحلام) / مصدر.
	يوسف 36-37-45	3	(تأويله) / مصدر.
	يوسف 100	1	(تأويل رؤياي) / مصدر.
	الكهف 78-82	2	(تأويل) / مصدر.
المدني	آل عمران 7	2	(تأويله) مصدر.
	النساء 59	1	(تأويلا) / مصدر (مميز).
المجمـــوع		17	

9 وهي مدنية وآياتها : 175 .

وأما نسب ورود المصطلح داخل هذه الموارد : آيـــات وســـورا فيجمعـــها الجدول التالي:

السورة	عدد آياتها	حجم ورود المصطلح فيها	نسبة الورود
الأعراف	260	02	% 0.97
الإسراء	110	01	% 0.9
يونس	109	01	% 0.91
يوسف	111	08	% 7.2
الكهف	105	02	% 1.90
آل عمران	200	02	% 1
النساء	175	01	% 0.57

وبالنظر إلى توزيع هذه النسب حسب السور المكية والمدنية، ثم بحسب السور مجتمعة، ثم بحسب سور القرآن كله، نحصل على النتائج التالية :

نسبة الورود في السور المكية	% 11.58
نسبة الورود في السور المدنية	% 1.57
نسبة الورود في مجموع السور التي ورد فيها المصطلح	% 1.68
نسبة الورود في مجموع سور القرآن الكريم	% 6.21

2. في الحديث الشريف

اقتصر في الدرس الوصفي لموارد لفظ التأويل في الحديث، على دراسة مـــا ورد في الصحيح منه: أعني في صحيحي البخاري ومسلم، وما صححه غيرهما، و مـا كان صحيح الإسناد مما ذكر في الكتب التسعة.

2 .1 . لفظ (التأويل) في الصحيح من كلام الرسول ﷺ

ورد (التأويل) في الحديث الصحيح لفظا للرسول ﷺ، بصيغ مختلفة أربع مرات في أربعة أحاديث وهي :

2 .1 .1 . الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر ﷺ : (رأيتُ امرأةً سوداءَ ثائرةَ الرأسِ خرجتْ من المدينة حتى نزلتْ بمَهْيَعَة ، فتأوّلْتُهَا أنّ وَباءَ المدينةِ نقل إلى مهيعة وهي الجحفة)[10]، واللفظ هنا بصيغة الفعل الماضي المزيد .

2 .1 .2 . الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ (بينا أنا نائمٌ إذ أُتيتُ خزائنَ الأرضِ فوُضعَ في يديّ سواران من ذَهَب فكَبُرا عليّ وأهمّاني ، فأُوحيَ إليّ أن انفخهما فطارا فَأَوّلْتُهُمَا الكذابين اللّذَيْن أنا بينهما صاحبَ صنعاءَ وصاحبَ اليمامة)[11].واللفظ هنا بصيغة الفعل الماضي .

2 .1 .3 . الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﷺ : (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنّا في دارِ عقبةَ بنَ رافعٍ فأُتينا برُطب ابن طاب ، فأوّلتُ الرِّفعةَ لنا في الدُّنيا والعاقبةَ في الآخرة وأنّ دِيننا قد طابَ)[12]. واللّفظ هنا بصيغة الفعل الماضي .

---

10 ــ أخرجه البخاري: [صحيح البخاري / كتاب التعبير / باب المرأة السوداء / 4 / 218]، وورد الحديث بروايتين مختلفتين ذكر فيهما لفظ التأويل بصيغة (فأوّلتُ): [صحيح البخاري 4 / 218] .

11 ــ أخرجه البخاري ومسلم [ينظر صحيح البخاري / كتاب التعبير / باب النفخ في المنام 4 / 217 ــ 218 + مسلم بشرح النووي /كتاب الرؤيا / ح رقم 2237]. وورد الحديث بصيغة أخرى برواية ابن عباس ﷺ : (بينا أنا نائم رأيتُ أنه وُضع في يدي سواران من ذهب ففُظِعْتُهُما وكرهتهما فأُذن لي فنفختهما فطارا فاوّلتهما كذابان ...) صحيح البخاري/كتاب التعبير/باب إذا طار الشيء في المنام : 217/4.

12 ــ أخرجه مسلم / كتاب الرؤيا / ح رقم 2270 .

2 . 1 . 4 . الحديث الذي رواه ابن عباس*:(اللهمَّ فقههُ في الدّينِ وعَلّمْهُ التأويل)[13] واللفظ فيه بصيغة مصدرية.

2. دلالات موارد لفظ التأويل في القرآن والحديث

إن معرفة الدلالات والمعاني التي يحملها لفظ (التأويل) في القرآن والحديث يُقتضي تحليل مجموع المعطيات المستفادة من إحصاء الموارد ووصفها، أي معطى الإحصاء أو حجم ورود المصطلح داخل النصوص، ومعطى الصيغ التي ورد بها في تلك النصوص.

1.2. تحليل معطى الإحصاء

أول ما يلاحظ من خلال معطى الإحصاء :

* أن حضور المصطلح في القرآن الكريم ضئيل جدا ، على مستوى القرآن الكريم كله، عامة، وعلى مستوى السور التي ورد بها، خاصة، وهو ما ظهر جلياً في

13 ــ أخرجه الإمام أحمد في مسند بني هاشم/ ح رقم 2393 و 2418 بطرق مختلفة جلها صحيح منها : طريق: الحسن بن موسى الأشيب، عن زهير بن معاوية أبو خيثمة، عن عبد الله بن عثمان بن خثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس* ، ورجال هذه الطريق ثقات أثبات [ينظر ميزان الاعتدال: 1 / 524 + 2 / 86 +2 / 459 ــ 460]. وطريق: عفان بن مسلم الصفار، عن حماد بن سلمة بن دينار، عن عبد الله بن خُثَيْم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس*، ورجال هذه الطريق أيضا ثقات أثبات [ينظر ميزان الاعتدال: 3 / 81 ــ 82 + 1 / 590 ــ 591 ــ 592 ــ + 2 / 459 ــ 460] .وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ح رقم:7055 ، والحاكم في المستدرك، وقال: "هذا الحديث صحيح الإسناد"، ح رقم: 6280، وقال عنه اسحاق بن راهويه في مسنده: "رجاله ثقات كلهم" [230/1]، وأخرج البخاري الحديث دون لفظ (التأويل) في: كتاب العلم/ باب اللهم علمه الكتاب: بلفظ(اللهم علمه الكتاب) [صحيح البخاري 1/ 25] وفي كتاب الوضوء/ باب وضع الماء عند الخلاء ، بلفظ (اللهم فقهه في الدين)[1 / 40].

قلة صفاته ومحدودية علاقاته وندرة ضمائمه وانحصار قضاياه داخل النص القرآني[14].

* أن قلة ورود المصطلح داخل السور متفاوت ، حيث تمثلت أعلى نسبة لوروده في سورة يوسف التي جاء التأويل فيها، بكثافة، في سرد قصصي طويل تميزت به سورة يوسف المكية، على سائر السور ، ثم تليها سورة الكهف ، ثم سورة آل عمران ثم سورة الأعراف ثم سورة يونس ثم الإسراء فالنساء . ويُفهم من هذا أن حضور المفهوم في القرآن المكي أكثر منه في القرآن المدني، ولهذا كانت أمور العقيدة المتمثلة في الإيمان باليوم الآخر والكتاب إحدى المتعلقات المهمة بموضوع التأويل.

* أن ورود المصطلح بهذه النسب المتفاوتة يوحي بالدلالات التالية :

أ – ارتباط التأويل ــ في أكثر موارده ــ بتعبير الرؤى والأحلام ، وهو ما تضمنته آيات يوسف التي ورد فيها المصطلح مقترنا بالرؤى والأحلام والأحاديث[15].

ب– ارتباط التأويل في مستوى ثان من موارده بالقرآن الكريم ، وذلك ما جاء في آيات الأعراف ويونس وآل عمران ، التي جاء فيها المصطلح متصلا بضمير عائد على الكتاب.

ج– ارتباط التأويل في مستوى ثالث، بعاقبة بعض الأفعال المخصوصة التي ورد ذكرها في آيات : الإسراء والكهف والنساء .

14 – وهذا على عكس ما نجده خارج النص القرآني ، في دائرة العلوم التي استعمل فيها مصطلح التأويل حيث تعددت معانيه وتشعبت علاقاته ونمت قضاياه في كل فرع من فروع تلك العلوم .

15 ــ وهذا أمر مفارق لما نجده خارج النص القرآني ، حيث ارتبط التأويل في مجال الأصول والكلام والفلسفة والتصوف واللغة أيضا بمجال النصوص من جهة صرفها عن دلالاتها الظاهرة إلى دلالات أخر ، أكثر من ارتباطه بمجال تعبير الرؤى والأحلام .

هذا على مستوى النص القرآني، أما في الحديث الصحيح ، فإن نفس الملاحظات تتبدى من حجم ورود المصطلح فيه : وهي قلة الورود، حيث لم يرد المصطلح إلا أربع مرات في الصحيح من منطوق الرسول ﷺ، ومما يستنبط من ذلك أن كلام الرسول ﷺ في موضوع التأويل قليل، وهو على قلته، ارتبط بتأويل الرؤى والأحلام بنسبة تفوق كثيرا ارتباطه بمجال النصوص وتفسيرها كما مثلها حديث الدعاء لابن عباس ﷺ.

2.2. تحليل معطى شكل الورود

في تحليلنا للصيغ والأشكال الصرفية والاشتقاقية التي ورد بها المصطلح في القرآن الكريم تلوح الملاحظات التالية :

* أن المصطلح ورد في كل النصوص بالصيغة المصدرية معرَّفا بالإضافة تارة –وهو الأكثر– ونكرة تارة أخرى، وهذا أمر يوحي بثبات هذا المفهوم وعدم خضوعه لسنة التغيير التي يمثلها حدث الفعل وأزمنته ، وينسجم مع دلالة اللفظ أيضا وهي أنه : حقيقة ثابتة واقعة لا محالة سواء أكانت تلك الحقيقة متعلقة بالأحلام والرؤى التي تتحقق واقعا ، أو متعلقة بما جاء في القرآن الكريم من الأخبار الموعودة والمغيبات الواقعة حتما يوم القيامة ...

* أن صيغة " التفعيل " المميِّزة لهذا المصدر لا تقتضي وجود فعل ممارِس لعملية التأويل ، بل هي واقعة هنا موقع الصفة : لذلك كان المقصود بالتأويل هنا: ما يؤول إليه الشيء : أي الحالة والصفة التي تؤول إليها الأشياء وهي: الوقوع والتحقق، وليس فعلُ التأويلِ نفسه .

* أن صيغة " التفعيل " دالة على معنى التصيير، وهذا ينسجم مع الدلالة اللغوية للمصطلح التي لم تُتَجاوز في الاستعمال القرآني كثيرا: فالتحقق والعاقبة هو ما تصير إليه كل الأمور المؤولة (أيا كانت).

* أن المصطلح – على عكس ما ورد في القرآن الكريم – جاء في الحديث بالصيغ الفعلية أكثر، سواء المزيدة منها أو المجردة (أوّل – تأوّل)، في سياق حواري مباشر بين الرسول ﷺ وصحابته في موضوع تعبير الرؤى والأحلام، على عكس السياق السردي الذي جاء فيه التأويل مرتبطا بالرؤى والأحلام في القرآن الكريم. وهذا يدل على ارتباط التأويل في هذه السياقات بحدث وقع زمن القول (قول الرسول) وانقضى – وهو تلك الرؤى التي رآها الرسول ﷺ وتحققت في زمنه[16]– بخلاف قول الله ﷻ الذي لا ينقضي ولا ينفد.

وإذا كان التأويل مصدرا قد دل– في القرآن– على حقيقة ثابتة واقعة لا محالة، وفعلا دل –في الحديث– على وقوع متجدد، فإن المُمَيِّز لهذا المفهوم ليس هو الثبات أو التجدد ، وإنما هو الوقوع والتحقق سواء كان ذلك بصفة ثابتة :كوقوع وتحقق ما جاء في القرآن في الغيوب يوم القيامة، أو متجددة:كوقوع مآلات الأحلام والرؤى في الدنيا .

3.2. تحليل المعاني والدلالات

يقود التدبر العميق لكل موارد لفظ التأويل في القرآن الكريم والحديث إلى مجموعة من المعاني التي يمكن رصُّها في الوحدات الدلالية التالية :

1.3.2. تأويل الكتاب : جاء التأويل في ثلاثة من موارده القرآنية وأحد موارده الحديثية ، مرتبطا بالقرآن الكريم وذلك على التفصيل التالي :

16 ــ سيأتي بيان ذلك في الفقرات التالية .

* ففي آية الأعراف : يأتي التأويل متصلا بالضمير العائد على الكتاب كله الذي جاء مفصلا من عند الله ﷻ هدى ورحمة للمؤمنين : ﴿ ولقدْ جئناهم بكتاب فصلناه على علم هُدى ورحمةً لقوم يومنون ، هل ينظُرونَ إلّا تاويلَه﴾ ، والمراد بتأويل الكتاب هنا : تحققه ووقوع ما فيه[17].

ومما يناظر هذا المعنى ويقاربه ما جاء في آية يونس: (بل كذّبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله) حيث جاء التأويل متصلا بالضمير العائد على الكتاب كله والموسوم بالتفصيل أيضا: (وما كان هذا القرآنُ أن يفترى من دُون الله ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا رَيْبَ فيه من رّبِّ العالَمين)، إلى قوله: (بل كذّبوا بما لمْ يحيطوا بعلمه) . ومجيء التأويل في الآية في مقابل الإحاطة بالعلم، يؤكد أن المراد هنا أيضا: تحقق ما جاء فيه ووقوعه يوم القيامة، وإن كان هذا لا يمنع وقوع بعض تأويله في الدنيا قبل الآخرة، ما دام التأويل هنا للقرآن كله، إذ في

17 ــ يكاد يجمع المفسرون على أن المراد بتأويل الكتاب : عاقبة ما وُعِدَ به من سيق الكلام لأجلهم وهم المكذبون، أو ثوابه وجزاؤه في الآخرة [ن: تنوير المقباس(لابن عباس) ص: 157 + الإمام مالك مفسرا ص : 198 + ت . غريب القرآن لابن قتيبة ص : 168 + معاني القرآن، للفراء، 1 / 380 + ت .عبد الرزاق الصنعاني، 2 / 230 + ت . السمرقندي (بحر العلوم) 1 / 545 + ت . الطبري، 5 / 8 / 203 + ت . الزمخشري، 2 / 105 + ت. ابن عطية، 7 / 78 + ت. البغوي، 2 / 2 / 236 + ت. القرطبي، 7 / 217 ــ 218 + ت. أبي حيان (البحر المحيط)، 4 / 306 + ت. الشوكاني، 2 / 210]، وهذا يعني أن التأويل هنا ليس للكتاب كله وإنما لبعض ما تضمنه من الوعد والوعيد ، وهذا المعنى وإن كان صحيحا، فهو جزء من مدلول التأويل هنا، إذ لم يرد في سياق الآية ما يحصر التأويل في الوعد والوعيد ، في الجزاء والثواب، وإنما جاء ما يدل على وقوع تأويل الكتاب كله ، وقول المكذبين بعد وقوع تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ قول جامع للحق كله الذي جاءت به الرسالة سواء ما تعلق منه بالثواب والعقاب أم بالنبوة والرسالة أو بإخلاص العبودية لله وحده ، أو بغير ذلك مما جاء في الكتاب، وقد يكون تخصيص الوعيد والعاقبة بالتأويل هنا مستندا إلى الآيات التي سبقت (سياق الآية) ومنها قوله عز وجل (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) الآية 50، فالكلام في الآية جاء ردا على نسيانهم يوم اللقاء وهو يوم القيامة، ولذلك قال عز وجل (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل) وحينئذ يكون المعنيان معا صحيحين.

القرآن آيات وأخبار وقعت وجاء تأويلها في الدنيا[18]، كما أن فيه من الآيات والأخبار ما لا يقع تأويله إلا يوم القيامة.

هذا التأويل الذي لا يقع إلا يوم القيامة هو الذي تحدثت عنه آية آل عمران حيث تعلق التأويل فيها بالمتشابه – أي ببعض الكتاب وليس كله – الذي لا سبيل لبشر إلى العلم به، ولذلك كان العلم بهذا التأويل مختصا بالله ﷻ: إذ لا يعلم وقوع هذا المتشابه –من الأخبار والمغيبات– وتحققه بقدره وكيفيته ووقته إلا الله ﷻ، وهذا المعنى الذي ألمحت إليه الآية كان بمثابة القول الفصل في إحدى أكبر القضايا المرتبطة بمصطلح التأويل وأكثرها تشعبا وهي قضية المحكم والمتشابه[19]، فتأويل المتشابه هنا ليس من قبيل تفسير الألفاظ المتشابهة التي لا يتضح معناها، وإنما هو من قبيل تحقق المعاني التي تدل عليها الآيات المتشابهات, وإذا كان التأويل قد يفهم منه معنى التفسير أيضا، فليس قطعا في هذه الآية .

في نص حديثي وحيد جاء التأويل مرتبطا بمجال دلالي مختلف عما جاء في القرآن الكريم وهو مجال العلم ببيان القرآن الكريم وتفسيره ، وذلك هو المفهوم من الحديث الذي يدعو فيه الرسول ﷺ لابن عباس: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل). لكن ورود التأويل بهذا المعنى لم يفصله عن القرآن الكريم، فهو تأويل للكتاب أيضا: تأويل له من جهة ما تؤول إليه ألفاظه من المعاني المرادة بها، والذي يقود إلى هذا المعنى أمران: (أولهما) طبيعة العلم الذي برع فيه ابن عباس: المدعو له في الحديث ، وهو علم التفسير، (وثانيهما) طبيعة العلاقة بين الفقه في الدين وعلم

18 ــ وذلك كوقعة بدر مثلا التي جاء الخبر عنها في القرآن الكريم ووقع تأويلها تصديقا لذلك الخبر، ولهذا فسر البعض إتيان التأويل في الدنيا بمثال وقعة بدر [ن: ت. ابن عطية، 4 / 306]، وفي ذلك يقول الربيع بن أنس ، فيما يرويه عنه الطبري: "فلا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة ... " [ت . الطبري 5 / 8 / 204] .

19 ــ حيث حددت الآية، من خلال مقالها ومقامها، طبيعة المحكم والمتشابه ، ونوع العلاقة الرابطة بين هذين المفهومين ، ومفهوم التأويل كما بينت حدود التأويل والعلم به.

التأويل التي تجعلهما ينتميان معا إلى نفس المجال العلمي: مجال الفقه والعلم والفهم، لا مجال الوقوع والتحقق والفعل.

2.3.2. تأويل الرؤى والأحلام : ارتبط التأويل في ثمانية من موارده القرآنية ، وستة من موارده الحديثية بالرؤى والأحلام، وكانت سورة يوسف نصا زاخرا بهذا المعنى الذي تجسد في تركيب اصطلاحي دلّ على استعمال المصطلح داخل هذا المجال: مجال "علم التعبير"، وذلك من خلال ضميمتي تأويل الأحاديث وتأويل الأحلام[20]، التي دلت بسياقاتها المختلفة على أن التأويل فيها هو تحققٌ ووقوعٌ لما تؤول إليه الأحلام والرؤى – المعبر عنها بالأحاديث– كما دلت على أن العلم بهذا التأويل صنو للاجتباء والنبوة بما هو تعليم وإلهام رباني[21]، لذلك كان للتأويل أثر واضح في توجيه حياة يوسف عليه السلام وارتبط بشكل مباشر بمراحل حياته كما تحكيها السورة.

وفي سياق آخر: سياق الأحاديث التي قص فيها النبي ﷺ رؤاه وأوّلها لصحابته، يأتي التأويل بنفس المعنى السابق: ترجمة واقعية لأحداث تقع على عهد الرسول ﷺ أو بعده: فرؤيا المرأة السوداء التي أوّلها الرسول ﷺ بالوباء الذي سيصيب المدينة، قد وقع فعلا كما تحكيه كتب السيرة[22]، وتأويل السوارين بأنهما

20 ــ التي وردت ثلاث مرات في السورة وذلك في الآيات : 6 ، 21 ، 101، 44،45، كما ورد ما يدل على معناها في آيات أخر : 36 ، 37 ، 43 ، 100 ، التي ذكر فيها التأويل مضافا إلى الرؤيا وإلى الضمير المتصل العائد عليها.

21 ــ وهذا ما دلت عليه شبكة من العلاقات ربطت بين تأويل الأحاديث، والاجتباء، وإتمام النعمة، والملك، والتمكين في الأرض.

22 ــ جاء في سيرة ابن هشام : أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة كانت أوبأ أرض الله من الحمى، وأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، ولما بلغه ذلك، دعا الله عز وجل: (اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباؤها إلى مهيعة ومهيعة هي الجحفة) [السيرة 2 / 239 ، وأخرجه البخاري بألفاظ مقاربة في: كتاب الحج، 1/ 323، وكتاب المرضى: 4/ 8، وكتاب الدعوات: 4/ 109] فالراجح أن تلك الرؤيا حدثت في ذلك الحين .

الكذابان مسيلمة والعنسي، وطيرانهما بأنّهُ موتهما واندثار دعواهما قد حدث فعـــلا، وتأويل الرطب بالرفعة لدين الإسلام شيء حدث فعلا حين أعز الله المسلمين بتثبيـــت دعائم الدين في الأرض، وإتمامه عقيدة وشريعة, وتأويل رؤى القمص واللبن تحققـــت في شخص عمر بن الخطاب، فكانت فضائله تلك : فضل العلم والدين، مما لا يخفى.

لقد أظهرت هذه الرؤى وتأويلاتها قيمة الرؤيا في حياة المســـلمين عمومـــا، والأنبياء منهم خاصة، ومن قيمتها أن جعلها الله، للأنبياء، جزءا من ســـتة وأربعـــين جزءا من النبوة[23]، وللمسلمين عامة من المبشرات الباقية بعد أفول نجم النبـــوة[24]، ولذلك كانت قيمة تأويلها من جنس قيمتها، ولم يؤت العلم بهذا التأويل إلا من تمـــيز بالنبوة أو الإيمان والصلاح والبصيرة .

3.3.2. **تأويل الأفعال:** جاء التأويل في أربعة من موارده القرآنية متعلقـــا بجملة من الأفعال، وذلك على التفصيل التالي :

* ففي آيتي الكهف: ورد التأويل مرتين متعلقا باسم الموصـــول : (ســـأنبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا)، و (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)، وذلـــك في سياق القصة التي تحكيها الآيات[25] عن موسى ﷺ والعبد الصالح الذي أرسله الله إليه معلما، وكان موضوع ذلك العلم هو المُشار إليه بـــ(ذلك) المتعلق بتأويل الأفعـــال التي قام بها العبد المعلم، وهي كما تبينها الآيات : خرق السفينة وقتل الغلام وإقامـــة

23 ــ كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: (رؤيا المؤمن جـــزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) [صحيح البخاري / كتاب التعبير: 4 / 209] ولذلك كـــان أولُ مـــا بُدِئ به الرسول ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة كما روت عائشة رضي الله عنها [صحيـــح البخـــاري / كتاب التعبير: 4 / 207 ــ 208].

24 ــ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: (لم يبق من الوحي إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشـــرات؟ قـــال: الرؤيـــا الصالحة) [صحيح البخاري / كتاب التعبير: 4 / 209].

25 ــ من الآية 60 إلى الآية 82 .

الجدار، أي المآلات الحقيقية والعواقب المترتبة على تلك الأفعال[26] المتضمِّنة للحكم البالغة والمقاصد المغيبة التي تنطوي على المصلحة، وهي المآلات التي غابت عن علم موسى ﷺ ولم يُطق صبرا[27] حتى بينها له العبد الصالح بقوله: (أما السَّفِينَة فكانت لمساكين يعملون في البحْر) إلى قوله: (رحمة من ربك)[28]، ثم ختم تأويله ذاك بقوله: (وما فعلتهُ عَن َامْري)، إشارة إلى أن التأويل المذكور - أي عاقبة تلك الأفعال وما آلت إليه - هو من قبيل المغيبات التي تدخل ضمن علم الله ﷻ المطلق بالغيب وما علم ذلك العبد بها إلا بإذن منه وأمر، ولذلك وصف الله ﷻ علمه ذاك بأنه من لدن الله تعالى في قوله: (فوجدَا عبْدا من عبادنا آتيناهُ رَحْمَةً من عنْدِنَا وعَلَّمْنَاه من لدُنَّا علما)[29]، وهنا يلتقي علم التأويل الذي أوتيه العبد المعلم بعلم التأويل الذي أوتيه يوسف والذي قال فيه يوسف لصاحبي السجن قبل تأويل رؤياهما: (ذلكُمَا

---

26 ــ جاء عن بعض المفسرين أن معنى التأويل في الآيتين : التفسير: "أي هذا تفسير ما لم تسطع عليه صبرا ، [ن:هذا المعنى في تفسير السمرقندي(بحر العلوم): 203 + ت. الطبرسي، 3 / 752 + ت. القرطبي، 11 / 39 + ت. ابن كثير، 3 / 93 ــ 100 + ت. الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير)7 / 16 / 10]. لكن هذا المعنى لا يستقيم مع سياق الآية التي ذكر فيها الأفعال لا الأقوال، وما حصل لموسى من " إشكال " في تقبله لتلك الأفعال لم يكن، سببه غموض في القول حتى يحتاج إلى تفسير يبينه ويوضحه ، وإنما كان سببه الجهل بالمصالح الواقعية المترتبة لاحقا على تلك الأفعال أي الجهل بالعاقبة والتأويل ، وذلك لأن ظواهر تلك الأفعال لم تدل على المصالح وإنما على المفاسد كما في قتل الغلام وخرق السفينة.

27 ــ ولذلك قال النبي ﷺ في ختام الحديث الطويل الذي حكى فيه قصة موسى ﷺ مع العبد المعلم: (يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما) [صحيح البخاري / كتاب العلم ،1 / 36].

28 ــ وهي الآيات: 78- 79 ــ 80 ــ 81 .

29 ــ آية 64، وقد وجد بعض من سلك دروب التصوف في هذه الآية ملاذا لهم من خلال مفهوم (العلم اللدني) الذي استنبطوه من الآية ، وقسموا بموجبه العلوم إلى علمَ الباطن الذي لا يعلم مسالكه إلا الأولياء من الصوفية ، وهو الحقيقة الكاشفة للأسرار الإلهية ، وعلم الظاهر الذي يشتغل به العامة ، وهو بالنسبة لعلم الباطن كالصدف بالنسبة للجواهر: [ينظر هذا التقسيم للعلوم مثلا عند الغزالي في إحياء علوم الدين: 1 /19 ــ 20، وجواهر القرآن، ص: 35 ــ 43] وقد قاد هذا إلى تقسيم القرآن نفسه إلى ظاهر وباطن مما أدخل كلام الله في جدل كلامي وفلسفي عقيم جرَّ على المسلمين من ويلات الخلاف ما لا يخفى ، ومن تأثير هذا المعنى على التفسير ذهاب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتأويل في الآيتين: الباطن،جاء في تفسير البيضاوي: "سأنبئك بتأويل ... الآية: بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكرا من حيث الظاهر" [2 / 3 / 233]، وجاء في فتح البيان (لصديق خان) : "المراد بالتأويل: إظهار ما كان باطنا" [5 / 85].

عَلَّمَني ربّي)[30]، وبذلك يكون التأويل في الحالتين معا : واقعا مغيبا أو غيبا واقعا حجبه الله عن بعض عباده[31]، وأظهره لغيرهم[32]،كما هو الشأن بالنسبة لأنبيائه ورسله: (عالم الغيب فلا يُظهر على غَيْبه أحدا إلاّ منِ ارْتَضى من رَّسُول فإنه يسلُكُ من بين يديه ومن خلفه رصدا)[33].

* أما في آيتي الإسراء والنساء: فقد ارتبط التأويل بجملة من الأفعال التي سيقت في شكل أوامر ونواهي موجهة للأفراد والجماعات من الأمة ، القصدُ منها تنظيمُ حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتنبيهُ على قيمة هذه الأفعال في ميزان اليوم الآخر، وذلك بوصفها بالعاقبة الحسنة في الآخرة والخير في الدنيا، وكان التأويل في الآيتين هو تلك العاقبة الواصفة لتلك الأفعال، والموصوفة بالحسن في آن واحد وذلك في تركيب متشابه يدل على تناسب بين الآيتين يؤول إلى وحدة النسق القرآني وتماسكه .

3. المُحَصَّل في تعريف التأويل

يتحصل من استقراء موارد اللفظ في القرآن والحديث أن التأويل فيها يستعمل بالمعاني التالية :

30 ــ يوسف 37 .

31 ــ وهم في آيات يوسف: الملك وصاحبا السجن ، وفي آيتي الكهف موسى عليه السلام .

32 ــ وهم : نبي الله يوسف (في سياق آيات يوسف)، والعبد المعلم في سياق آيتي الكهف، وأيضا من له علم بتأويل الرؤى ، كالنبي ﷺ) وسائر عباد الله الصالحين.

33 ــ الجن: 26-27، ورغم أن الآية – كما يدل على ذلك سياقها – وكما ذهب إلى ذلك الطبري قد قصرت الغيب المظهَر لغير الله عز وجل على الوحي وما يرتبط به من مظاهر كنزول الملائكة ، مما لا يعلمه بعد الله إلا رسله [ن: ت الطبري 10 / 29 / 76 ــ 77]، فإن ذلك لا يمنع دخول الغيب الذي كان معجزة لبعض الأنبياء فيها ، كعلم عيسى بما يدخره الناس في بيوتهم وما يأكلون كما تخبر بذلك الآية الكريمة (وأنبّئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) آل عمران 48 ، [ينظر ت. القرطبي، 10 / 28].

1. وقوع الرؤيا وتحققها في الواقع بعد العلم بتحويلها من صور مرئية متخيلة إلى حوادث واقعية[34].

2. تحقق ما جاء في القرآن من الأمور ووقوعها يوم القيامة أو قبل ذلك بأقدار وكيفيات لا يعلمها إلا الله ﷻ[35].

3. بيان ألفاظ القرآن وتفسيرها بما يدل على المعاني المرادة منها لله ﷻ[36].

4. عاقبة بعض الأفعال المخصوصة ومآلاتها الحقيقية المتضمنة للمصلحة والخير في الدنيا والآخرة[37].

انطلاقا من هذه المعاني الجزئية يمكن استخلاص المعنى الكلي الذي يجمعها ويشكل بذلك تعريفا للتأويل، وهو أن يقال:

> التأويل في اصطلاح القرآن والحديث هو ما يصير إليه القول أو الفعل من عاقبة وتحقق في عالمي الغيب أو الشهادة، ويشمل في اصطلاح الحديث — أيضا— مصير ألفاظ القرآن الكريم إلى المعاني المُرادة لله ﷻ منها.

فتضمن هذا التعريف شطرين :

أولهما: حكم عام مشترك بين الاصطلاحين القرآني والحديثي، ويقضي بحصر دلالة التأويل في معنى التحقق والعاقبة والتصير، أولا، وشموله للقول والفعل معا: أما القول، فيتضمن عبارات الرؤى، وآيات الكتاب، خبرا كانت أو طلبا، وأما الفعل،

34 ــ وهذا المعنى هو المفهوم من آيات يوسف ، وأحاديث الرسول ﷺ في تأويل الرؤى .

35 ــ وهو المفهوم من آيات الأعراف ويونس وآل عمران ، كما سبق بيانه من قبل .

36 ــ وهذا المعنى دل عليه نص واحد من نصوص المصطلح هو الحديث الذي دعا فيه الرسول ﷺ لابن عباس .

37 ــ وهو المفهوم من آيات: الكهف والإسراء والنساء.

فيقصد به ما يجري من الأحداث التي تتعلق بأشياء مغيبة عن الحس والنظر، ولا تعقل إلا بعد وقوعها، فتأويل الأقوال والأفعال هو عين حقيقتها المقصودة، وحقيقتها هي تحققها الفعلي في عالم الشهادة (كالرؤى والأحاديث، وأوامر الكتاب وأخباره، وأفعال صاحب موسى)، أو في يوم القيامة (مثل ما أخبر الله عز وجل عنه من أمور الساعة واليوم الآخر).

والشطر الثاني: حكم خاص مستمد من أحد نصوص الحديث، إذا صح منه المتن، وهو موجود في استعمال الصحابة للفظ، وهذا الحكم يحتفظ بأصل الدلالة (أي التحقق والعاقبة والتصيير)، ولكنه يضيف إليه بعدا دلاليا جديدا، وهو تصيير الألفاظ إلى المعاني، وهي إضافة تجعل التأويل مرتبطاً بمعنى التفسير.

وصفوة الكلام، فإن لفظ التأويل في اصطلاح القرآن والحديث يدل على جملة من المعاني الجزئية الناتجة عن اقتران اللفظ بأمور ثلاثة: بالرؤى والأحلام، وبالكتاب، وبالأفعال، تنتهي في مجملها إلى تعريف مصطلح التأويل في القرآن والحديث بأنه ما تصير إليه الأمور المغيبة من عاقبة وتحقق ووقوع، في الدنيا أو الآخرة، إلا في أحد موارده الحديثية حيث انتقل ذلك التصيير من الأشياء إلى المعاني، فكان التأويل دالا على معنى التفسير.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الإمام مالك مفسرا، جمع وتحقيق وتقديم: حميد لحمر، إشراف مركز البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت،1995.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- بحر العلوم، السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل عبد الموجود وزكرياء النوتي، دار الكتب العلمية، ط3/ 1988.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة،مصر، ط: 1328/1هـ.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د.ت).
- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تصحيح نخبة من العلماء، دار المعرفة، بيروت، 1969.
- تفسير القرآن الكريم، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تح مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1989.
- تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، الفيروزأبادي، دار الأشراف، ط1، 1988.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، دار الكتاب العربي، ط3، 1967.
- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1978.
- جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1986.
- صحيح البخاري، بحاشية السندي، دار الفكر، (د.ت).
- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993.
- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر، بيروت، 1981.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، د.ت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمرو الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، ط3، 1987م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، تصحيح وتعليق وتحقيق هاشم الخلاني وفضل الله الطباطبائي، ط2، 1988.
- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ابن عطية الأندلسي، تح المجلس العلمي بفاس، مطابع فضالة، المحمدية، ط2، 1982.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، 1991.
- معالم التنزيل (تفسير البغوي)، البغوي، دار الفكر، 1979.
- مفاتيح الغيب، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله الذهبي، تح محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1963.